مدينة الذهب

منذ آلاف السنين، كان الملك «باروباكاراين» يجلس على عرش مملكة «فاردهامانا» التي كانت تعتبر –في ذلك الزمن –جوهرة العالم. وعلى قدر الحب الذي كان رعاياه يكنونه له، لما اتصف به من شجاعة وعدل وإحسان، كان أعداؤه يهابونه ويخشون بأسه. وكان الملك متزوجًا من امرأة تمتاز بجمال خارق يحاكي جمال البرق حين يلتمع وسط كتل السحاب الدكناء. بيد أنها كانت تختلف عن البرق في أنها كانت مخلصة، لا يعتور عواطفها تذبذب أو وهن!

ولم تلبث الملكة أن أنجبت لزوجها طفلة ورثت عن أمها سحرها وفتنتها، وكأنما لم يكن من هم الخالق –حين صاغها على تلك الهيئة الباهرة –إلا إذلال كبرياء آلهة الجمال!.. وأطلق الزوجان عليها اسم «كانكاريخا».. أو أكليل الذهب، على اسم أمها.

وبمرور السنين ترعرعت الطفلة وبلغت طور النساء، وأختلى الملك ذات يوم –بزوجته وقال لها: «لقد شبت ابنتنا–يا سيدتي –وبلغت سن الزواج، ومن ثم فإن القلق يساورني على مصيرها، حتى ناء قلبي بالهموم! أن العذراء الشابة –ذات الحسب والنسب، سليلة العائلات العريقة التي

لا تجد لها مكاناً مناسباً تستقر فيه، إنما تشبه أغنية ذات نغمات ناشزة، يؤذي رنينها الأذان!.. فماذا يكون الحال لو أن التوفيق جانب أبويها في اختيار زوج مناسب لها، فمنحاها الرجل تافه ليس جديراً بها؟ أن مثل هذا الزواج لا يؤدي إلى فضل أو شرف، وإنما إلى حزن وندم إلى أبد الدهر. هذه هي المشكلة التي تثقل قلبي ولا أعرف لها حلاً: إلى من من الملوك الذين تقدموا طالبين يد ابنتي ينبغي أن أزوجها؟ وكيف يمكنني أن أعرف منهم الشخص الجدير بها، والذي لن يالو جهداً في إسعادها؟».

فابتسمت الملكة وقالت: «أهذه هي المشكلة التي تقض مضجعك، بينما الفتاة ذاتها ترفض مجرد التفكير في الزواج؟ لقد فاجأت اليوم ابنتنا «أكليل الذهب» وهي تصنع لها دمية، فلما سألتها مازحة: «متى يتم الزفاف؟»، أجابتني بقولها: «لا تفوهي بمثل هذا الكلام يا أماه. إنني لن أتزوج أبداً، بل سأظل عذراء إلى أن أموت، إن القدر يمنعني من الافتراق عنكما. وسأظل أعيش في كنفكما، وسأكون مصدر سعادتكما، ولو عشت بينكما عذراء! أما إذا أرغمني على الزواج، فإنني سأموت لا محالة. وثمة سبب لذلك!». وقد اضطربت لكلماتها اضطراباً فظيعاً، وبادرت بالمجيء إليك لأنهي لك الأمر. إنني لا أملك إلا أن أتساءل هل من الحكمة أن تقهرها على أمر ضد إرادتها؟».

فلما سمع الملك هذه القصة من شفتي الملكة اضطرب قلبه وتكدر باله. ولم يتردد في الذهاب إلى جناح ابنته قائلاً: «ماذا أسمع يا ابنتي الحبيبة؟.. أحقاً ترفضين الزواج، والأليات والدوريات لا يترددن في

ملاقاة كل عناء من أجل العثور لك على زوج؟»، فغضت «أكليل الذهب» من نظرها احتراماً لأبيها، ثم قالت: «لست راغبة في الزواج يا أبي. الآن على الأقل. لماذا تدع هذا الأمر يقلقك، فتلح فيه؟ ».

وكان الملك «باروباكاراين» ملكاً حكيماً، خبيراً بشئون الدنيا، فأجابها قائلاً: «إني للمرء أن يكفر عن ذنوبه وخطاياه، إذا لم يبذل كل ما يسعه من جهد ليدبر لابنته زواجاً موفقًا؟ إن أحدًا لم يسمع بفتاة استغنت عن رعاية الرجال، فقد خلقت المرأة لتعيش في كنف رجل سواء أكان زوجها أو أباها، بل إن المرأة تولد وقد خط اسم زوجها في لوحة قدرها! إن أبويها يرعيانها لفترة محدودة تنتهي حتمًا، لتتوجه بعدها إلى بيت زوجها. إن الفتاة التي لا تتزوج ليس من حقها أن تعتبر بيت والديها بيتها، بعد انقضاء طفولتها. ويجب أن تدركي –يا ابنتي –أن الفتاة إذا ظلت عانسًا فإن أنوثتها لن تلبث أن تخبو بمرور الأيام –حتى إذا تزوجت آخر الأمر، لا يفوز زوجها عندئذ إلا بهيكل عظمي، مجرد من أحاسيس النساء!».

وأمام إلحاح الأب ومنطقه، لم تجد الفتاة بداً من التصريح بمكنون فؤادها، فقالت له: «إذا لم يكن من الأمر بد، فلا مانع لدي من الزواج من أي نبيل أو برهمي يتقدم طلباً يدي، على شرط أن يكون قد زار مدينة الذهب!.. هذا الرجل –ولا شخص غيره–هو الذي أقبله زوجاً؟ وعبثاً تحاول أن تغريني على التنازل عن هذا الشرط!»

وراح الملك يناجي نفسه قائلاً: «لا بأس. إنني أعتبر نفسي محظوظاً، إن اقتنعت ابنتي –على الأقل – بالفكرة!.. إن الشك يراودني أحياناً في أنها ألهة هبطت –لعلة ما –إلى الأرض لتولد تحت سقف بيتي! وإلا، من أين لها كل هذه الحكمة وهذا العلم؟ إنها لا تعدو أن تكون طفلة!»

وفي اليوم التالي عقد الملك مجلس وزرائه، وسأل الحاضرين: «أيوجد بينكم من زار مدينة اسمها «مدينة الذهب»؟ إذا كان أحدكم يعرف برهمياً أو نبيلاً زار هذه المدينة، فإني على استعداد لأن أهبه ابنتي لتكون زوجته، وأتنازل له عن العرش!». وراح كل من الحاضرين ينظر إلى الآخر في دهشة، ثم قالوا: «كلا يا مولاي، بل إننا لم نسمع بهذه المدينة قبل اليوم!».

وما أن انفض المجلس حتى أمر الملك بأن يخرج المنادون إلى طرقات المدينة، منادين –على صوت قرع الطبول –إن كان أحد قد زار مدينة الذهب، وطاف المنادون صائحين: «يا قوم، إن كان بينكم من زار مدينة الذهب، سواء أكان برهمياً أو نبيلاً فليتقدم إلى الملك الذي سيزوجه من ابنته الأميرة «أكليل الذهب» ويتنازل له عن عرشه! ».

وقد قوبل إعلان الملك بدهشة من جميع الذي سمعوه، وراح الناس يسألون بعضهم البعض قائلين: «أين تقع مدينة الذهب هذه التي

يعلنون عنها؟. إن أحدًا منا لم يسمع بها من قبل، وحتى العجائز منا لم يقع بصرهم عليها!».

***

وفي ذلك الوقت، كان أحد البرهميين الشبان يدعى «ساكيتديفا» يعيش في مدينة «فاردهاماتا». وكان يافعاً غريراً، فأطلق العنان لشهواته، وأفنى في لعبة النرد –في فترة وجيزة –كل ما ورثه عن أبيه. وكان قد خرج لتوه من إحدى نوادي القمار بعد أن خسر آخر ما تبقى لديه من مال، حين سمع المنادين يصيحون بأن الملك مستعد الآن يزف ابنته لرجل زار مدينة الذهب. وعلى الفور تفتق ذهنه عن فكرة خبيثة، فقال لنفسه: «لقد خسرت كل ثروتي، ولم يعد لدي ما أقامر به بعد اليوم، ولم أعد أجد ترحيباً من أحد. لقد طردني أعمامي من المنزل، وأغلقت الحانات والمواخير أبوابها في وجهي، ولست أملك مكانًا أبيت فيه. فماذا أخسر لو أنني زعمت أنني قد زرت مدينة الذهب هذه؟ أن أحدًا لم يذهب إليها، فكيف يستطيعون أن يكتشفوا خديعتي؟. ولربما ظفرت بالأميرة والعرش بهذه الطريقة!».

واستجمع شتات شجاعته، واتجه نحو المنادين، مطلقاً أكذوبته، وقال لهم «لقد زرت مدينة الذهب». فقال المنادي: «مبارك أنت بين الرجال. هلم بنا إلى رئيس الحجاب». واستقبل رئيس الحجاب أكذوبته باحترام وتبجيل، فلما مثل ذلك الأفاق في حضرة الملك لم يتلعثم، بل

كرر زعمه بجنان ثابت. فما هو الأمر الذي يحجم عن أدائه إنسان فقد كل ثروته في القمار ؟!

واستدعى الملك ابنته لتستمع إلى أقوال الفتى. فلما حضرت وسألته: «أحقاً تعرف مدينة الذهب؟»، فأجابها قائلاً: «أجل. لقد مررت بهذه المدينة –منذ زمن بعيد –أثناء تنقلي بين بلدان العالم المختلفة طلباً للعلم والمعرفة!»، فسألته: «إذن، صف لي الطريق إليها، وشكل هذه المدينة»، فأجابها بقوله: «لقد قمت من هنا قاصداً مدينة «هارابورا» ومنها يممت شطر جبال البنارس، وهنالك قضيت ثلاثة أيام ثم اتجهت صوب مدينة «بوندرافاردهانا»، ومنها ذهبت إلى مدينة الذهب.

أجل، لقد شاهدت المدينة، إنها بمثابة الفردوس للذين أوتوا فضلاً عظيماً. وهي تشبه في روعتها وبهائها جنة «اندرا» التي يعشى ضياؤها أبصار الناظرين، ما عدا أبصار الآلهة الذين لا يتحرك لهم جفن!.. هذه هي الطريق التي سلكتها إليها، وهذا هو شكل المدينة كما رأيته! ».

حتى إذا فرغ البرهمي من سرد قصته الوهمية، ابتسمت الأميرة في وجهه بحبور، ثم قالت: «صدقت أيها البرهمي العظيم. لقد أقمت الدليل –فعلاً –على معرفتك بالمدينة. ولكنني أرجوك أن تعيد شرح الطريق التي سلكتها!»، ومرة أخرى انطلق البرهمي يشرح الطريق، لكنه بذل عناية

أعظم –هذه المرة –في تنميق قصته، وإضفاء جو الصدق عليها، حتى إذا انتهى منها أمرت الأميرة وصيفاتها بإلقائه في الخارج!

ودهش الملك لتصرف الأميرة، ثم سألها: «ماذا؟ ألم يكن البرهمي صادقاً؟»، فأجابته الأميرة: «كلا يا أبي. بل لا توجد كلمة صدق واحدة فيما قال. إن أمرك عجيب يا أبي، فبالرغم من أنك تدير شئون الدولة بمهارة وحذق لا ينكرهما عليك أحد، فإنك تتصرف –أحيانًا –بغير تفكير. إلا زلت تجهل أن العالم مليء بالمحتالين والأفاقين الذين يتفننون في نصب شباكهم كي يوقعوا فيها السذج والأمناء من الناس؟ لقد حاول ذلك البرهمي أن يخدعني، لكن أمره لم يلبث أن انكشف، فأدركت أنه لم تطأ قدماه يومًا «مدينة الذهب». لذلك أنصحك يا أبي بألا تتعجل في محاولة العثور على زوج لي. أما أنا فقد قررت من جانبي أن أظل عذراء إلى أن ينجلي ما سطر لي في لوح القدر!»

لكن الملك ألح عليها قائلاً: «ليس طيباً –يا ابنتي –أن تظل الفتاة عذراء فترة طويلة. إن أشرار القوم –الذين لا يؤمنون بحرمة، والذين تغضبهم فضيلة الفاضلين –لا يملون ترديد الإشاعات الخبيثة عن الفتاة التي تظل بلا زواج، لأنهم يجدون أعظم متعة في تشويه سمعة الناس الطيبين. ألم تبلغك قصة هاراسفامين؟ إذن فأنصتي:

***

«كانت مدينة الزهور تقع على ضفاف نهر «الجانجز». وكان راهب يدعى «هاراسفامين» يقيم في هذه المدينة ليستفيد من بركات النهر المقدس. وقد اتخذ من كوخ صغير –شيده على ضفة النهر – مسكناً له، وهيكلاً يتعبد فيه. وكان يعيش على الصدقات التي يجود بها أهل الخير عليه . وقد اشتهر بالتدين والتقوى والعزوف عن شهوات العالم وملذاته .. وأكسبه تصوفه الخارق للعادة حب جمع سكان المدينة وعطفهم. وقد خرج ذلك الراهب من صومعته –ذات صباح –ليتسول طعامه وكان رجل شرير يقف بين جمهرة كبيرة من الناس، فما لمحه من بعيد حتى قال لمن حوله: «إن هذا الراهب الذي يتظاهر بالتقوى والدين منافق كبير. ألم تسمعوا بنبأ الأطفال الذين يختفون من منازل ذويهم فلا يعثر لهم على أثر؟ حسناً، لو تقصينا الأمر لعرفنا أنهم جميعًا قد انزلقوا إلى معدة هذا الراهب، فهو يتغذى بلحم الأطفال!»، وسرعان ما انضم إليه رجل ثان لا يقل عنه خبثاً، فقال: «أجل،

لقد سمعت الناس يرددون عنه ذات الأمر، على أنه حقيقة لا مراء فيها!».. ولم يلبث ثالث أن أكد إدعاءهما قائلاً:

«نعم، لقد نطقتما صدقاً!»

«كأن سلسلة حديدية قد إلتقت وضاقت حلقاتها حول عنق الرجل المظلوم، فسرعان ما إنتقلت الشائعة الذميمة من فم إلى فم ومن لسان إلى لسان، حتى إستفحل أمرها فإنتشرت في كل أرجاء المدينة، وكان من

نتيجتها أن باتت النساء يغلقن أبواب بيوتهن على أطفالهن، خوفاً من أن يختطفهم «هاراسفامين» ويلتهمهم أحياء.

«وقد خشي البرهميون الثلاثة أن يفتضح أمر وشايتهم الدنيئة، فقرروا فيما بينهم–أن يتخلصوا منه بطريقة حاسمة، فعقدوا إجتماعاً عاماً حضره معظم أهل المدينة، وأصدروا قراراً جماعياً بنقي الراهب من المدينة. بيد أن واحداً من الوفد الذي اختير التنفيذ الحكم لم يجرؤ على الإقتراب من الراهب، خشية أن يستشيط غضباً فيلهمهم واحداً بعد الآخر.. وأخيراً بعثوا إليه برسول منهم، وقف على مسافة بعيدة–ليتيح لنفسه فرصة القرار إذا إضطرته الظروف لذلك–وأنهي إليه بالحكم قائلاً: «لقد أصدر عليك البرهميون أمراً بأن تغادر المدينة فوراً، وإلى غير عودة!»، فسألهم الراهب مذهولاً: «وماذا إرتكبت حتى يصدر ضدي مثل هذا الأمر؟». فأجابه الرسول قائلاً: «إنك تأكل أطفالنا الصغار!».

وقد قرر الراهب أن يكتشف–بنفسه–جلية الأمر: فإندفع وسط الحشد المتجمهر، وأثناء ذلك إحتك كتفه بالبرهميين الثلاثة الذين روجوا الإشاعة، فأدركهم الفزع والوجل، وإنطلقوا هاربين ثم تسلقوا جدار الدير.

وقد كان طبيعياً أن يفروا من أمام وجهه، لأن الرجل البريء الذي تروج له إشاعة كاذبة، لا يمكن للمرء أن يتكهن سلفاً ما قد يقدم عليه، وغالباً ما تكون تصرفاته بعيدة عن التعقل!.

«ونادى هاسفارامين البرهميين الثلاثة الذين تسلقوا الجدار، وسألهم قائلاً: «ما هذه الحماقة أيها البرهميون؟ ليسأل كل منكم الآخر: من منكم فقد طفله؟ وكم يبلغ عدد الأطفال الذين إلتهمتهم. وراح أهل المدينة يسألون بعضهم بعضاً هذا السؤال، وإذابهم يكتشفون أن جميع الأطفال موجودون وأنهم أحياء يرزقون!. وإذ ذالك هتف الجميع قائلين: «لقد إتهمنا رجلا قديساً، من جراء غفلتنا وحماقتنا أن جميع الأطفال يلعبون في الشارع، لم ينقص منهم واحد فمن هم الذين إلتهمهم راهب إذن؟».

«وهكذا ثبتت براءة الراهب بالبرهان القاطع، ولكنه صمم على الرحيل عن المدينة، إذ ما هي المدة التي يجدها الإنسان في البقاء في مدينة شريرة تجردت قلوب أهلها من الرحمة، وتجردت عقولهم عن الصواب؟!.. قد إنقلبوا جميعاً ضده لمجرد شائعات حقيرة رددها فريق من اللصوص الحاقدين!.. فلما أدرك أهالي المدينة عزمه على الرحيل دفعهم الندم إلى الركوع تحت قدميه، متوسلين إليه أن يبقى، ولم ينجحوا في مسعاهم هذا إلا بعد عناء كبير!».

***

وختم الملك قصته قائلاً: «أن هذا يثبت لك–بما لا يدع مجالاً للشك–أن قلوب الأشرار تحاول دائما الإيقاع بكل من إتصف بالأخلاق القويمة، فهم يناصبونه العداء ويروجون عنه الأكاذيب، بل إنهم–في

بعض الأحيان–يلفقون له الإتهامات!. وحين تحين لهم سانحة–مهما ضؤلت–يبادرون بإشعال نار الفتنة، ويذكونها بأن يصبوا فوقها دلاء مملوءة بالزيت السائل! .. والآن، هلا تراك راغبة في نزع هذه الشركة من جسدي؟ إذن عليك أن تبذي غاية جهدك لتفويت الفرصة على أولئك الأشرار الذي يتحينون فرصة تفتح أنوثتك لترويج الشائعات الذميمة عنك.. وذلك بأن ترتبطي–بأسرع ما يمكن–بشاب يليق بك!».

ولكن الأميرة لم تقتنع بالأدلة التي ساقها أبوها، بل واصلت جداها قائلة: «إذا كنت ترى أن هذه هي الطريقة الوحيدة، إذن فإعثر لي على نبيل أو برهمي يكون قد زار مدينة الذهب!» .. ولم يجد الملك تفسيراً لعنادها وإصرارها على هذا الشرط، سوى أنها لابد قد إحتفظت ببعض الذكريات من حياتها السابقة. ولم يجد الملك مندوحة من إذاعة الإعلان ذاته–كل يوم–على دقات الطبول، عسى أن يكون أحد الوافدين الجدد إلى المدينة قد زار مدينة الذهب وإلا أن الأيام إنقضت يوماً بعد يوم ولم يتقدم إليه أحد!.

***

وفي تلك الأثناء، كان الشاب البرهمي«ساكتيديفا»–الذي طردته الأميرة شر طردة يحدث نفسه قائلاً: «أن أكذوبتي لم تنطل عليها، ولم تؤد إلا إلى إحتقار الأميرة لى وخسارتي إياها!.. لذلك يجب أن أسعى لإصلاح هذا الخطأ، وأن أعمل الفوز بها عن جدارة!.. إنني سأجول على

ظهر الأرض حتى أعثر على هذه المدينة أو أهلك دونها!.. فما جدوى حياتي الآن؟ أما إذا تكلل سعيي بالنجاح، فسيكون بوسعي أن أعود لأطلب يدها، مكافأه لي على المغامرة التي قمت بها!».

وبدأ الشاب رحلته من مدينة«قاردهامانا». مولياً وجهه شطر الجنوب. ولم يلبث الرحالة أن وصل إلى الأدغال الكثيفة التي تقع في جبال«فاندهيا»العالية علو أمانيه وأحلامه! وسار في طريقه مخترقاً الشابة، وكانت الشمس تصليه بلهيبها، لكن النسيم العليل الذي كان يداعب أوراق الأشجار لطف الجو حوله.. وكانت تصل إلى أذنيه صيحات الألم الصادرة من الغزلان والظباء والقرود حين تفترسها الأسود وغيرها من الحيوانات الوحشية، وكأنما كانت الشابة تصرخ محتجة على نهب اللصوص ثرواتها!.. وفوق الصحراء الجرداء كان الهواء يهب عنيفاً، وقد بدت أغصان الأشجار كأنها تنحني تحت وقع السيال الفظيعة التي تسلطها الشمس عليها!.

وإستغرقت رحلته أياماً، قطع خلالها مسافة طويلة سائراً على قدميه خلال فلوات خلت من الماء تماماً، وتحيط به الأخطار من كل جانب. بيد أنه ما لبث أن صادف–في بقعة منعزلة بحيرة متسعة، تفيض بماء عذب، صاف.. وخيل إليه أن البحيرة لو دخلت مباراة بين البحيرات لفازت–بلا شك–بلقب ملكة البحيرات: كانت أشجار اللوتس تحيط بها، وفوق سطحها تسبح أوزات رشيقات تهز أذيالها في مرح وطرب! .. وعلى الفور خلع ملابسه وهبط إلى البحيرة ليتمتع بحمام منعش. و فيما

هو لاه ينثر رذاذ الماء من حوله وقد إستخفه عرب لا يليق برجل بالغ، لمح على الضفة الشرقية ديراً تحيط به أشجار ظليلة محملة بالفاكهة الشهية. فخرج من الماء متجهاً نحو الدير. وهناك شاهد راهباً كهلاً يدعى«سورياتاباس»جالساً أسفل شجرة«أزفاتا»وقد أحاط به رهط من النساك، وإزدانت أذناه بقرطين من الخرز، تمثل كل خرزة منهما قرناً من عمره.

فإنحنى«ساكتيديفا»أمام الراهب الذي رحب به عارضاً عليه ضيافته، ثم قدم إليه غداء يتألف من الفاكهة وبعض جذور الأشجار، وغيرها من طعام الغابات، حتى إذا فرغ من تناول غدائه سأله الراهب: «من أين أتيت يا بنى. وإلى أين تذهب؟»، فأجابه ساكتيديفا» قائلاً: «جئت من مدينة «فاردهامانا»، وقد آليت على نفسي بقسم رهيب أن أذهب إلى مدينة الذهب. غير أني لا أعلم الطريق إلى هذه المدينة. فإذا كنت تعرف موقعها أرجو أن تخبرني به!».

فقال له الراهب: «لقد عشت في هذا الدير ثمانية قرون، لم أسمع خلالها عن مدينة بهذا الإسم!»، وقد أسلمته إجابة الراهب لليأس والقنوط، فقال: إذن لم يعد أمامي سوى أن أقضي حياتي في التحول من مدينة إلى أخرى حتى أموت!».. ورثى الراهب لحال الفتى أفراح يستدرجه في الحديث حتى باح له بالقصة بحذافيرها. وعندئذ قال له الراهب: «على بعد ثلاثمائة فرسخ من هنا تقع دولة «كاميليا»، وفي هذه الدولة تجد جبل«أوترا»، وفوق هذا الجبل دير، وفي هذا الدير يعيش

أخي الأكبر«ديرجاتاباس». فإذهب إليه. إنه أكبر مني سنا، ومن ثم قد تكون لديه معلومات عن هذه المدينة!».

وعندئذ لاح له بصيص من الأمل، فإنطلق إلى حيث وصف الراهب. وبعد أن قطع شوطاً كبيراً من رحلته–إجتاز خلاله أدغالاً كثيفة، مليئة بالأخطار–وصل وقد بلغ به الإجهاد مبلغه إلى دولة «كامبيليا». وهناك شرع من فوره في تسلق جبل «أوترا».. وما لبث أن عثر على الراهب«ديرجاتاباس»–معتكفاً في ديره–فوق قمة الجبل، فإنحني أمامة بإحترام وعرض عليه القديس ضيافته، فإمتلأ فؤاده فرحاً، وقال: «يا سيدي المبجل. لقد خرجت في رحلة قاصداً مدينة الذهب. وهي المدينة التي سمعت بإسمها من أميرة بلادنا. وقد أقسمت قسماً–لارجوع فيه–أن أعثر على هذه المدينة. وقد أوفدني الحكيم «سورياتاباس»إليك، كى تدلني عليها!.. فأجاب الراهب: «طوال كل القرون التي عشتها من حياتي، هذه أول مرة أسمع فيها من هذه المدينة.. ولم يخبرني أحد من السياح المتجولين–الذين طالما شرفوني زيارتهم–بشيء عنها. أن إسم هذا المكان لم يطرق سمعي من قبل اليوم، ولم يقع نظري عليه أبداً. ولابد أنها مدينة نائية جداً.. ولعلها تقع في جزر«أرشيبيلاجو»..وبوسعي أن أدلك على الطريق إليها:

«في وسط المحيط توجد جزيرة تدعي«أتستالا».. وفي هذه الجزيرة يعيش«ساتيافارتا»،وهو رئيس قبيلة من صياد الأسماك، وقد أوتي ثراء واسعاً. وهو يسافر كثيراً إلى جميع جزر«أرشيبيلاجو»، فعساه يكون

قد رأى هذه المدينة، أو على الأقل سمع عنها، فعليك أن تذهب أولاً– إلى ميناء«فيتانكابورا»، ومن هناك

تستقل سفينة إلى جزيرة«أتستالا»حيث تعيش قبائل الصيادين!».

وشكر«ساكتيديفا» القدس على نصيحته ثم غادر الدير.. ومرة أخرى قطع مئات الفراسخ، مجتازاً بلدانا مختلفة، حتى وصل–أخيراً–إلى ميناء«فيتانكابورا»، الذي يقع كطابع الحسن على جبين الشاطيء!.. وهناك صادف تاجرا إسمه«ساموداراتا»، وسرعان ما توثقت الصداقة بينهما. وقد دعم التاجر صداقتهما بهدايا من مختلف أنواع الطعام أغدقها على البرهمي ثم أركبه سفينته.

وفيما كانت السفينة تشق عباب المحيط، ولم يعد بينهما وبين هدفهما سوى مسافة قصيرة، هب فجأة مارد من السحب والمواصف، أسود اللون، يلعق شفتيه بلسان من الأرند، مطيحاً بالأشياء الخفيفة عالياً، وهابطاً بالأشياء الثقيلة إلى أسفل، وكأنه القدر ذاته!.. وشبت في المحيط أمواج عالية، تدفعها قوة العاصفة، كأنها جبال تحوم فوق البحر مرفرفة بجناحيها!.. وكانت السفينة تهبط إلى أسفل ثم تصعد إلى أعلا، تشبه في ذلك حال الأثرياء من هبوط وإرتفاع! ولم تلبث أن قفزت في الهواء، وصرخات الفزع تتردد بين جنباتها، ثم إنفجرت وتحطمت إلى أشلاء صغيرة. وقد تمكن«سامودارداتا»–صاحب السفينة من السباحة

متعلقاً بقطعة من الخشب كانت تطفو فوق الماء، ولم يلبث أن إنتشلته سفينة عابرة.

أما«ساكتيديفا» فقد سقط في فم حوت ضخم كان يتثاءب، فإنزلق في حلقومه ووصل إلى معدته!.. وقد شاء القدر أن يسبح الحوت متجهاً صوب جزيرة«أتستالا». كذلك شاء القدر ذو النزوات أن ينصب خدم ملك الصيادين«ساتيافراتا»شباكهم في المنطقة التي وصل إليها الحوت فلم يلبث أن وقع في شراكهم. وقد بوغتوا إذ شاهدوا فخامة الحوت، فحملوه إلى الملك الذي أمر بشق بطنه، وإذا«ساكتيديفا» يخرج من جوف الحوت حياً، وفي صحة جيدة وكأنه ولد من جديد!.

فلما زال روع الملك سأل الشاب قائلاً: من أنت؟ وكيف وصلت إلى بطن هذا الوحش المفترس؟ من أين أتيت أيها البرهمي العجيب؟ وما هي المغامرات الرائعة التي خضتها؟»،

فأجاب الشاب بقوله: «أنني أدعي «ساكتيديفا»، من بلدة «فاردهامانا». وقد أقسمت أن أزور مدينة تدعي مدينة الذهب. ولما كنت لا أعرف الطريق إليها، رحت أجول حتى بلغت أطراف الأرض القاصية. وقد علمت من راهب يدعي«ديرجاتاباس»أن هذه المدينة لابد أن تكون في إحدى الجزر. ومن ثم ركبت سفينة ورحت أبحث عن جزيرة«أتستالا»، لكي أستفسر من الملك«ساتيافراتا»–ملك الصيادين–

عن موقع المدينة. لكن العاصفة أغرقت السفينة، فغصت إلى أعماق المحيط، حيث ابتلعتني السمكة الرهيبة.. وها أنا ذا أمامك!».

فأجاب الملك: «أنا هو«ساتيافراتا»، وهذه الجزيرة هى التي تقصدها. لقد شاهدت–في حياتي–سدنا لا حصر لها، ولكن المدينة التي تبحث عنها لم يقع بصري عليها أبداً، غير أنني سمعت عن مثل هذا المكان، ويقال أنه في أطراف جزيرة«أرشيبلاجو» .. لكنه ما أن شاهد خيبة الأمل التي إرتسمت على قسمات الشاب حتى إستطرد قائلاً: «ولكن، لا تدع اليأس يتسرب إلى فؤادك، أيها البرهمي. أمكث معنا الليلة وفي صباح الغد سأجد وسيلة تبلغك مقصدك!».

وبهذه الكلمات المشجعة أرسل ملك الصيادين البرهمي الشاب إلى أحد الأروقة، حيث لقى فيه ترحيباً حاراً من برهمي آخر كان يقطن الرواق، إسمه«فيشنوداتا». وجلس«فييشنوداتا»إلى المائدة يراقب ضيفه وهو يتناول طعامه بشهية عارمة، وراح يجاذبه أطراف الحديث، حتى إذا فرغ الشاب من تناول طعامه، وجه إليه مضيفه وابلا من الأسئلة عن وطنه وأسرته وظروفه، فباح له«ساكتيديفا»بكل شيء. فما أن سمع«فيشنوداتا»قصته، حتي ألقى بذراعيه حوله محتضناً إياه في ود ظاهر، ثم هتف بصوت إختلط بنشيج البكاء قائلاً: «أوه. مبارك أنت. إنك ابن خالي!.. لقد جئت من نفس بلدتك، منذ زمن طويل، وأنا بعد طفل. يجب أن تمكث معي هنا، ولن يطول بك الوقت حتى تعرف أين

تقع هذه المدينة، من البحارين والتجار الذين يفدون بلا إنقطاع من جزر «أرشيبلاجو»!.

ولما تأكد«فشنوداتا»من صلة القرابه التي تربط بينهما، غمر ابن خالة الشاب بشتى مظاهر الضيافة، حتى لقد نسى«ساكتيديفا»العناء الذي لاقاه في رحلته، وإمتلأ فؤاده غبطة لعثوره على قريب له من ذلك البلد النائي، وكأنما قد عثر على قربة من خمر الآلهة في وسط صحراء جرداء!.. فساده إحساس بالتفاؤل وأدرك أنه–لا محالة–واصل إلى بغيته.. ذلك لأن حسن الطالع الذي وفقه إلى العثور على قرنيه، كفيل بأن تنبت طالعاً حسناً على طول الطريق؟.

***

وفي صباح اليوم التالي، إلتقى«ساتيافراتا، ملك الصيادين»، «بساكتيديفا» في الدير. وإذ كان صادق.

فهرعت«فاتنة»إلى السطح، وإذا بها ترى رجلاً على هيئة الإله «فيشنو»يمتطي طائراً ضخماً، وبحلق به في السماء.

العزم على تنفيذ وعده الذي قطعه في الليلة السابقة، قال له:

«أيها البرهمي. لقد خطرت لي خطة لتحقيق بغيتك: في وسط المحيط توجد جزيرة جميلة إسمها«راتناكوتا»وفي هذه الجزيرة معبد شهد له المحيط لعبادة الإله«فيشنو». وقد إعتاد سكان الجزيرة إقامة إحتفال

في ذلك المعبد، يتوافد إليه الحجاج من جميع جزر«أرشيبلاجو». ولابد أن يكون من بينهم واحد سمع بمدينة الذهب. هلم نذهب سوياً إلى هناك، فإن يوم الإحتفال قد إقترب!».. وقابل «ساكتيديفا» إقتراح الملك بفرح وغبطة، ولم يلبث ابن خاله أن أمده بمعدات الرحلة.

وإستقل الإثنان قارباً صغيراً، وكان الملك يمسك الدفة حين خرج بهما القارب إلى عرض المحيط وإجتازا في رحلتهما خليج«كنوز الأعاجيب»، فمن كان يؤمن بالحيتان الشبيهة بالجزر الطافية. وسأل«ساكتيديفا»ملك الصيادين الممسك بالدفة: «ما هذا الشيء الفاتن الذي يبدو في الأفق البعيد، والذي تبرز قمته فوق المياه؟ أنه يلوح كجبل شاهق له جناحان، يستطيع إذا فردهما أن يخرج من أسفل الماء!» .. فأجابه«ساتيافراتا» قائلاً: هذه شجرة«باتيان»السماوية. ويقول الناس إنها ذات جذور عريضة تمتد إلى النيران المشتعلة في أعماق البحر!.. يجب أن نبتعد منها وإلا لقينا حتفنا، فليس لنا نجاة إذا إشترك القارب بأغصانها!».

وفيما كانا يتحدثان، إذا برج عاصفة تهب على القارب وتدفعه نحو مكان الخطر. فصاح الربان قائلاً: «لقد حلت نهايتنا أيها البرهمي، ما من شك في ذلك. إنظر. لقد إنحرف القارب في إتجاه الشجرة الملعونة، ولا أستطيع أن أزحزحه بعيداً عنها قيد أنملة. ولن تلبث أن تجدنا بين فكى الدوامة التي لا قاع لها، والتي تفغر فاها–وكأنه فم الموت–لإبتلاعنا. ولست أهتم بما يحدث لي، فما من إنسان كتب له الخلود في هذا

العالم، ولكن الأمر الذي يحزنني هو أنك–برغم كل ما بذلت من جهد وعناء لن تبلغ هدفك!.. بيد أنني سأتشبث بالقارب ما إستطعت ذلك، وعليك أنت أن تحاول التعلق بأحد فروع الشجرة وستتيح لك قوة بنيتك فرصة للنجاة والتغلب على أهواء القدر وأمواج المحيط!».

وقبل أن يفرغ«ساتيافراتا»من قوله: كان القارب يندفع بسرعة رهيبة نحو الشجرة. وقد إستمد «ساكتيديفا»، من فزعه قوة، فقفز من القارب وقبض بيديه على أحد غصون شجرة المحيط. أما «ساتيافراتا»فقد ضحى بنفسه لأجل ضيفه، وسرعان ما كانت نيران أعماق البحار تصهره في أتونها!

ولما وجد«ساكتيديفا»نفسه بمنجى عن الخطر، متعلقاً بأحد فروع الشجرة الشامخة نحو السماء، راح يناجي نفسه في يأس قائلاً: أنني لم أر بعد مدينة الذهب وقد تسببت في هلاك ملك الصيادين، والآن قد جاء دوري لأهلك أنا كذلك!.. لكن القضاء مكتوب على جبين البشر، فمن

يستطيع أن يهرب مما سطر له في لوح القدر؟».. وقضى الشاب طول يومه مستغرقاً في مثل هذه الأفكار التي تراود المرء وهو على شفا الموت.

وعند ما أرخي الليل سدوله، لمح«ساكتيديفا»حشداً من الطيور الضخمة تأتي من كل صوب، وأصوات نعيقها تملأ السماء.. ثم هبطت

فوق الشجرة، فإستقبلتها أمواج المحيط كما يستقبل المرء أصدقاءه القدامى. ومالبث«ساكتيديفا»–وهو مختف أسفل غطاء تقيل من أوراق الشجرة–أن سمع الطيور تتحدث بلغة البشر، وقد راح كل منها يخبر الآخر أين قضى يومه!.. فهذا في جزيرة، وذاك في جبل أو في ناحية من نواحي السماء!.

وقال أحد الطيور، وهو طائر كبير السن: «لقد ذهبت اليوم إلى مدينة الذهب لأقضي هناك وقتاً هانئاً. وغداً سأعود إلى هناك مرة أخرى، فلم أعد أتحمل بعد مشقة الطيران الطويل!».. ونزلت كلمات الطير برداً وسلاماً على قلب«ساكتيديفا»، وكأنها رشفات من خمر الآلهة، فأزاحت الغمة عنه وبددت من قلبه اليأس، ومن ثم راح يحدث نفسه قائلاً: «لقد نجوت!.. لقد تأكدت الآن أن لهذه المدينة وجوداً، ولم يبق أمامي سوى الوصول إليها.. لماذا لا أستخدم هذا الطائر الفخم مطية لي؟».. وأخذ ينتقل من فرع إلى آخر مقترباً من الطائي، حتى إذا إطمان إلى أنه قد أخذه سنة من النوم، تسلق ظهره ثم إندس بين جناحيه؟.

وفي اليوم التالي، بدأت الطيور تحلق في السماء، فنهض طائر«ساكتيديفا» وفرد جناحيه ثم حلق بدوره–وكأنه يد القدر–في الفضاء، تدفعه قوة جناحيه الهائلين،حاملاً«ساكتيديفا» فوق ظهره. حتى إذا وصل إلى مدينة الذهب هبط في حديقة وارفة الظلال، فنزل«ساكتيديفا»، بهدوء عن ظهره، ثم إنطلق متسكعاً على غير هدى. و فجأة لمح إمرأتين تقطفان زهوراً من الحديقة، فإقترب منهما حذراً

ومالمحناه حتى إجفلتا فزعتين، بيد أن«ساكتيديفا»تقدم إليهما متسائلاً: «ما إسم هذه المدينة؟.. ومن تكونان؟».

–هذه مدينة الذهب، عاصمة مملكة الأرواح. وتحكمها ملكة من الجن إسمهاكاندابرابها. ونحن بستانيتان في حديقتها هذه، أيها الصديق. وقد خرجنا لنقطف لها بعض الزهور»، فقال لهما: «تكرما بقيادتي إلى حيث أمثل بين يدي مولاتكما».

وصحبت المرأتان الشاب إلى القصر الملكي، الذي كان بمثابة مكان تتجمع فيه كل ملذات الدنيا.. فقد كانت جدرانه موشاة بالذهب وأعمدته محلاة بأنفس أنواع الأحجار الكريمة. فلما شاهد الخدم الشاب يقترب من القصر، هرعوا إلى سيدتهم الملكة«كاندرابرابها»، معلنين حضور رجل من الأنس، وعلى الفور أمرت الملكة وصيفاتها أن تفتحن له الأبواب، فلما دخل راحت عيناه تلتهمان جمالها الصاعق، الذي لا شك في أن الخالق قد بذل في صياغته كل ما لديه من قدرة علوية!.

ونهضت الملكة–في دلال–عن مقعدها الموشي بالجواهر، وإستقبلته إستقبالاً كريماً، وهي ترمقه بنظرات تتم على أن ملاحة طلعته قد خلبت لبها!.. ولم تلبث أن سألته قائلة: «من عساك تكون أيها الأنسي الوسيم؟.. وكيف إستلمت الوصول إلى هذه المدينة المحظور على جميع الكائنات البشرية إجتيازها؟ .. فقص عليها«ساكتيديفا قصته بحذافيرها.. حكي لها كيف عرض حياته للتهلكة في بحثه عن مدينة

الذهب: وكيف بلغها، والمخاطر التي صادفها في الطرق إليها، واستمعت اليه الملكة بذهن شارد، مستغرقة في أفكارها. ثم إلتفتت إليه فجأة، وقالت له بلهجة تقطر ودا:

* * *

أمـــواج المحـــيط كمـــا يســـتقبل المـــرء أصـــدقاءه القـــدامي. ومالبث«ساكتيديفا»–وهو مختف أسفل غطاء تقيل من أوراق الشجرة أن سمع الطيور تتحدث بلغة البشر وقد راح كل منها يخبر الآخر أين قضى نومـه!.. فهـذا فـي جزيـرة، وذاك فـي جبـل، أو فـي ناحيـة مـن نـواحي السماء!.

وقال أحد الطيور، وهو طائر كبير السن: «لقد ذهبت اليوم إلى مدينة الذهب لاقضى هناك وقتاً هانئاً. وغداً سأعود إلى هناك مرة أخرى، فلم أعد أتحمل بعد مشقة الطيران الطويل!.. ونزلت كلمات الطير برداً وسلاماً على قلب«ساكتيديفا»، وكأنها رشفات من خمر الآلهة، فأزاحت الغمة منه وبددت من قلبه اليأس، ومن ثم راح يحدث نفسه قائلاً: «لقد نجوت!.. لقد تأكدت الآن أن لهذه المدينة وجوداً، ولم يبق أمامي سوى الوصول إليها.. لماذا لا أستخدم هذا الطائر الفخم مطية لي؟».. وأخذ ينتقل من فرع إلى آخر مقترباً من الطائر، حتى إذا إطمأن إلى أنه قد أخذته سنة من النوم، تسلق ظهره ثم إندس بين جناحيه!.

وفي اليوم التالي، بدأت الطيور تحلق في السماء، فنهض طائر«ساكتيديفا»وفرد جناحيه ثم حلق بدوره–وكأنه يد القدر–في الفضاء، تدفعه قوة جناحيه الهائلين، حاملاً«ساكتيديفا» فوق ظهره. حتى إذا وصل إلى مدينة الذهب، هبط في حديقة وارفة الظلال، فنزل«ساكتيديفا» بهدوء عن ظهره، ثم إنطلق متسكعاً على غير هدي. و فجأة لمح إمرأتين تقطفان زهوراً من الحديقة فإقترب منهما حذراً ومالمحناه حتى أجفلتا فزعتين، بيد أن«ساكتيديفا»تقدم إليهما متسائلاً: «ما إسم هذه المدينة؟ .. ومن تكونان؟».

– هذه مدينة الذهب، عاصمة مملكة الأرواح. وتحكمها ملكة من الجن إسمها«كاندابرابها». ونحن بستانيتان في حديقتها هذه، أيها الصديق، وقد خرجنا لنقطف لها بعض الزهور!»، فقال لهما: «تكرما بقيادتي إلى حيث أمثل بين يدي مولاتكما».

وصحبت المرأتان الشاب إلى القصر الملكي، الذي كان بمثابة مكان تتجمع فيه كل ملذات الدنيا.. فقد كانت جدرانه موشاة بالذهب، وأعمدته محلاة بأنفس أنواع الأحجار الكريمة. فلما شاهد الخدم الشاب يقترب من القصر، هرعوا إلى سيدتهم الملكة«كاندرابرابها»، معلنين حضور رجل من الأنس، وعلى الفور أمرت الملكة وصيفاتها أن تفتحن له الأبواب، فلما دخل راحت عيناه تلتهمان جمالها الصاعق، الذي لا شك في أن الخالق قد بذل في صياغته كل ما لديه من قدرة علوية!.

ونهضت الملكة–في دلال–عن مقعدها الموشي بالجواهر، وإستقبلته إستقبالاً كريماً، وهي ترمقه بنظرات تنم على أن ملاحة طلعته قد خلت ليها!.. ولم تلبث أن سألته قائلة: «من عساك تكون أيها الانسي الوسيم؟.. وكيف إستطعت الوصول إلى هذه المدينة المحظور على جميع الكائنات البشرية إجتيازها؟».. فقص عليها«ساكتيديفا» قصته بحذافيرها.. حكى لها كيف عرض حياته للتهلكة في بحثه عن مدينة الذهب، وكيف بلغها، والمخاطر التي صادفها في الطريق إليها. وإستمعت إليه الملكة بذهن شارد، متفرقة في أفكارها، ثم إلتفتت إليه نجاة، وقالت له بلهجة تقطر ودا :

«انصت إلى الآن، وسأحكي لك قصتي يا حبيبي.. أن الذي يتولى الحكم في هذه الدولة هو الملك«ساسيكهاندا»، أو فضة القمر.. وقد رزق هذا الملك بأربع بنات، أكبرهن أنا وإسمى«كاندرابرابها»، أي القمر المتوهج، والثانية إسمها«كاندراريكها»: أي قلقة القمر والثالثة إسمها

«ساسبريكها»، أي لمسة التمر، والرابعة إسمها«ساسيبرابها»، أي القمر المضيء!.. وقد نمونا وترعرعنا معا. وذات يوم خرجت أخواتي الثلاث إلى نهر«الجانجز»، كى يغتسلن، بينما بقيت أنا بالمنزل منهمكة في الدعاء للآلهة بأن ترزقني زوجا.

«وكان أحد الرهبان–ويدعي«أجرياتاباس» يتطهر من آثامه في النهر، بينما كانت أخواتي تلهون في الماء في مرح، شأنهن شأن مثيلاتهن

من الشابات العذاري. وإذا بعض رذاذ الماء يصيب الراهب، فإستشاط غضباً ولعنهن قائلاً: «أيتها الفتيات الشريرات. ستولدن جميعكن من جديد في عالم البشر الفانين!».. فلما بلغ أبي ما حدث، ذهب إلى الراهب مناشداً أباه أن يرحمهن، لكن الراهب ضرب بتوسلاته عرض الحائط!.

«وأخيراً إستفسر منه أبي عن الظروف التي تزول فيها هذه اللعنة عنهن، فقال الراهب العظيم أنهن حتى في هيئتهن البشرية الجديدة سيملكن القدرة على تذكر حياتهن القديمة، كما يحتفظن بما للجان من حكمة.

وبالفعل. بارحت أرواح أخواتي أجسادهن ونزلت لتعيش في عالم البشر الفانين، وقد حزن أبي لفراقهن حزناً عظيماً فتنازل لي عن العرش، وذهب ليعيش في الغابة. ومنذ ذلك الوقت صرت أنا الملكة،

«وذات يوم، ظهرت لي الآلهة الأم في الحلم قائلة: «سيكون لك–يا ابنتي– زوج من عالم الإنس!».. ومن ثم رفضت جميع الذين تقدموا إلي من عالم الجان، مما زاد من هموم أي وأحزانه. وقد ظللت عذراء حتى يومنا هذا مترقبة حضور ذلك الزوج الموعود. وهاأنذا الآن أجد نفسي أسيرة جمالك الباهر، ورجولتك العارمة، وشجاعتك التي بدت في إجتيازك المخاطر والصعاب. ومن ثم سأكون لك منذ اليوم، وفي اليوم الرابع عشر من القمر سأتسلق إلى قمة جبل«رشابها»لكي

أخبر أبي بالأمر. ففي مثل هذا اليوم من كل عام، يجتمع هناك جميع رعايا مملكة الجان، ليقوموا بطقوس العبادة للإله«سيفا». وعندما أعود يجب أن تتزوجني!».

وبعد ذلك، أكرمت«القمر المتوهج»وفادته، وقدمت إليه ألذ وأشهى أنواع الطعام والشراب الذي يصنع خصيصاً السكان مملكة الجان، وقد وافق«ساكتيديفا على هذا الإقتراح بينما كان فؤاده يرقص طرباً. وعاش يرتع في سعادة تحكي سعادة الرجل الذي لمسته عصا سحرية فغطس في بركة من خمر الآلهة!.

وعند ما حل اليوم الرابع عشر من القمر قالت له الملكة: «سأذهب اليوم إلى أبي لأخبره بأمرنا، وسأصحب معي جميع خدمي. بيد أنه لا يجدر بك أن تحس بالتعاسة لتركي إياك وحيداً فترة من الزمن، إذ أن بوسعك أن تستمتع بكل ما يقع في يدك من وسائل الراحة ولكن، إياك أن تطأ قدماك الطابق الأوسط، بأية حال من الأحوال!.. و عندما غادرت«القمر المتوهج»القصر: تركت قلبها وديعة لدى الشاب الذي استولى على أفكارها!.

***

ولم يجد«ساكتيديفا» وسيلة لشغل وقته أفضل من التنقل من غرفة إلى أخرى من غرفها المزودة بكل وسائل الرفاهية، وهو يتسائل عن السبب الذي حدا بالملكة أن تحظر عليه ولوج الطابق الأوسط. وأخيراً

لم يستطع أن يكبح فضوله، فصعد الدرجات المؤدية إلى ذلك الطابق.. ذلك لأن ذهن المرء يتجه دائماً إلى الأشياء الممنوعة وقد تبين له أن ذلك السابق كان يتألف من ثلاثة أجنحة

منفصلة، و قد أغلق إثنان منها. أما الجناح الثالث فقد ترك بابه مواربا، فدفعه بيده.

وفي داخل الجناح وقع بصره على هيكل إمرأة ملفوف في ملاءة، مستلقياً على فراش موشي بالجواهر الكريمة.

حتى إذا رفع طرف الأمة، وقف مذهولاً وقد طالعه وجه الأميرة«كاناگاريكها»..التي تركها في مدينة «فاردهامانا.. وكانت ترقد ميتة!.

وراح«ساكتيديفا» يناجي نفسه قائلاً: «ماهذه المعجزة العجيبة.. هل تراها نعسانة أم مستسلمة للنوم الذى لا يقفلة بعده؟.. أم لعلي واهم، وخيالي يلعب بي؟.. هاهي ذي ترقد ميتة، تلك المرأة التي تركتها–حين قيمت برحلتي–حية ترزق. لكن جمالها لم يذبل بعد، فهل تراها توبة من الهذيان شاء القدر أن يبلبل لها أفكاري؟!».. ولم يلبث أن غادر هذا الجناح ودخل الجناحين الآخرين.. فإذا في كل منهما فتاة ترقد فوق سرير.. ميتة! .. ثم خرج إلى الشرفة وقد أخذت منه الدهشة كل مأخذ، حتى إذا نظر إلى أسفل شاهد بركة صغيرة فاتنة، وقد وقف على ضفتها

جواد مطهم ذو سرج من اللآليء، فهبط مقتربا–في فضول–من الجواد. وإذ لم ير أحداً بجواره، إنتابته

رغبة في إمتطائه. ولكنه ما أن بدا يحاول ذلك حتى ركله الجواد فسقط في البركة وغاص في الماء. فراح يجاهد ليطفو، لكنه حين إستطاع أن يرتفع إلى أعلى، وجد نفسه في المدينة التي بدأ رحلته منها– مدينة«فاردهامانا»– وقد غاص في مياه البركة التي في حديقة منزله!.

***

وعندئذ أدرك«ساكتيديفا»أن الأقدار قد حرمته من عروسة«القمر المتوهج»، فخبأ ضياء وجهه كزهرة الليل التي بذلها ضوء الشمس. وراح يصيح قائلاً:«فاردهامانا ؟ .. فاردهامانا؟ .. أأجد نفسي في«فارداهامانا»، بعد أن كنت في مدينة الجان.. ما معنى هذه الألاعيب السحرية.. ويحي أنا البائس المسكين! لقد غرر بي. ولكن ، من الذي يدرك الحكمة في تصاريف القدر؟».

وخرج«ساكتيديفا»، من البركة وذهب إلى منزل عمه، متظاهراً أمامه بأنه قد إضطر إلى التجول في أنحاء البلاد كطبال، بعد أن خسر ثروته في القمار: وسر عمه وعائلته بعودته وأقاموا المآدب إحتفالاً به.

وفي اليوم التالي غادر منزل عمه، وذهب إلى المدينة، حيث سمع–مرة أخرى–المنادين يصيحون بالإعلان القديم: على صوت دقات

الطبول: «إذا كان من بينكم من زار مدينة الذهب–برهمياً كان أو نبيلاً– فليتقدم، وسيمنحه الملك إبنته وعرشه!».

وإتجه«ساكتيديفا» إلى الطبال، وقال له: «لقد رأيت مدينة الذهب!».. فلما قادوه إلى الملك عرفه وأعتقد أنه يكذب في هذه المرة كما كذب من قبل. فقال له الشابة«أنني مستعد لأن تقتلني لو ثبت أنني أكذب. دع الأميرة

تستجوبني!».. وأرسل الملك خدمة ليستدعوا الأميرة فما وقع بصرها على البرهمي حتى قالت لأبيها: «أن الفتى تكذب ثانية يا أبي!».

فقال ساكتيديفا: « أنني أقول الصدق، ولو أنني كنت أكذب نفشرحي لي هذا الأمر العجيب: كيف يمكن أن أراك راقدة في فراشك ميتة في مدينة الذهب، ثم أراك–الآن–هنا تتمتعين بالصحة والعافية؟».. وكان ذلك السؤال هو الدليل على صدق الفتى، فإلتفتت الأميرة إلى أبيها قائلة: «حقا لقد زار هذا الرجل النيل مدينة الذهب يا أبي. وسيغدو زوجي عندما أعود إلى هناك. كما أنه سيتزوج أخواتي الثلاث، وسيتولى الحكم في المدينة، وسيكون صاحب أكبر سلطان في مملكة الجان. والآن سأعود إلى المدينة، وإلى جسدي الحقيقي. لقد ألقى راهب على شخصيتي الأولى لعنة جعلتني أولد من جديد في هذا المنزل. لكنه وضع شرطاً لزوال هذه اللعنة: فما أن يقع بصر إنسان من عالم الأنس على جسدي في مدينة الذهب ثم يعود ليخبرني بذلك في عالم الزائلين، حتى

تنزاح اللعنة عني، ويغير ذلك الرجل زوجي. لقد كنت أعرف كل هذا وكنت أذكر كل تفاصيل حياتي السابقة!.. سأعود الآن إلى مملكة الجان، ليتحقق ما قدر لي من نصيب!.. وما إنتهت الأميرة من قولها هذا حتى غادرت جسدها، وإختفت عن أنظار الحاضرين وفعلت في القصر الملكي أصوات البكاء والعويل!.

***

وهكذا فقد«ساكتيديفا»زوجتيه كلتيهما، وقدمني بشر هزيمة، رغم أن جهوده ومحاولاته الخارقة للعادة كللت–في حد ذاتها–بالنجاح وحتى إذا إنتابه حنين وشوق إلى المرأتين اللتين شغف بهما: راح بوجه اللوم لنفسه فيها أصابه من خيبة وعذاب. ولكنه بينما كان يتمشى خارج النصر، خطر له فجأة خاطر، فحدث نفسه قائلاً: «لقد تنبأت الأميرة«كانا كاريكها»بأن النجاح سيكون نصيبي في النهاية. فلماذا–إذن– أفقد الأمل؟.. أن النجاح يتوقف على شخصية الإنسان، ولسوف أعود إلى مدينة الذهب، متبعاً ذات الطريق التي سلكتها في المرة الأولى، ولا ريب في أن القدر يكفل لي سبيل السلامة!».

ورحل«ساكتيديفا» عن«فارداهامان».. ذلك لأن الرجل الصادق العزم لا تثبط همته أية عقبات، ولا ينكص على عقبه في منتصف الطريق، بل يتابع سيره إلى النهاية!.. وبعد أن قطع «ساكتيديفا» في رحلته شوطاً طويلاً إستغرق شهوراً عديدة، وصل إلى ميناء«فيتانكابورا». وهناك لمح

بطريق الصدفة–ذلك التاجر الذي أبحر معه من قبل والذي تحطمت سفينته، فحدث نفسه قائلاً: هذا«سامودراداتا»كيف أمكنة النجاة بعد أن غاص في قاع المحيط؟.. ولكن، لاغرابة في ذلك، فأنا نفسي قد نجوت!».. حتى إذا إقترب من التاجر عرفه هذا على الفور، فإحتضنه بين ذراعيه، في غبطة، ثم صحبه إلى داره. وبعد أن بثه أشواقه، سأله: «كيف نجوت من الغرق بعد أن تحطمت السفينة؟». فأخبره ساكتيديفا بما حدث له: كيف إبتلعه الحوت، وكيف وصل إلى جزيرة«أتستالا»، ثم سأل بدوره التاجر الطيب كيف نجا، فأجابه الأخير: «بعد أن سقطت في أليم، ظللت ثلاثة أيام متعلقاً بلوح من الخشب. وفجأة لمحت سفينة تمر بجوارى فصحت، فلمحني البحارة وألقوا إلي بحبل ثم جذبوني إلى السفينة. وما أن إعتليت ظهرها حتى وقع بصرى على أبي، وكان عائداً من رحلة طويلة إلى جزر « ارشيبيلاجو ». فما رآنى حتى إحتضنني وبكى من فرط الفرح، ثم سألني عما حدث لي، فأجبته: « عندما غبت عنا مدة طويلة في رحلتك –يا أبتاه– حسبت أن من واجبي أن أتولى تجارتك من بعدك.. وفي رحلة إلى جزر « ارشيبيلاجو» غرقت سفينتي، وسقطت في البحر.. حتى أتيت أنت وأنقذتني! ».

«فقال لي أبي معاتباً: « لماذا تخاطر بحياتك في مثل هذه المغامرة غير المأمونة العواقب.. إنني ثري يا بني، وإنني لا أفتأ أزداد غنى. إنظر إلى هذه السفينة التي أحضراتها محملة بكتل الذهب ».. وهدأت كلماته من روعي، ثم عاد بي بسفينته إلى دارنا في « فيتانكابورا »!».

وقضى « ساكتيديفا» الليلة في منزل التاجر. وفي اليوم التالي قال له: «يا أمير التجار. إنني مضطر إلى الرحيل –ثانية– إلى جزيرة «ألستالا». وكل ما أطلبه منك هو أن تدلني على السسل إليها »، فأجابه قائلًا: «إن بعض وكلائي على وشك أن يقلعوا إلى هناك. وبوسعك أن تبحر معهم».

ورحل البرهمي معهم، ولم يلبث أن وصل إلى الجزيرة، فلمحه أبناء ملك الصيادين من بعيد، وشاء القدر أن يتعرفوا عليه. فقالوا له: «أيها البرهمي. لقد ذهبت مع أبينا، باحثاً عن مدينة الذهب. فكيف عدت بدونه؟ »، فأجابهم البرهمي بقوله: «لقد سقط أبوكم في اليم، بعد أن حطمت الأمواج الصاخبة سفينته بالقرب من نيران الأعماق ».. لكن أبناء الرجل لم يصدقوه، وإحتدم غضبهم فأصدروا الأوامر لخدمهم قائلين: « أوثقوا يدى هذا المجرم بالأغلال. لقد قتل أبانا.. وإلا كيف يبحر رجلان معاً، ويسقط أحدهما في نيران الاعماق وينجو الآخر؟.. غداً سنقدمه قرباناً أمام تمثال آلهة القسوة! ».

وقيد الخدم يدي البرهمي بالأغلال، ثم ألقوه في « زنزانة » رهيبة بمعبد ألهة القسوة، مع من سبقوه إليها، تمهيداً لتقديمهم قرباناً للآلهة التي إنتفخت بطنها بآلاف الضحايا، ولم تشبع بعد.. وكانت الزنزانة مكتظة بالعظام العارية من اللحم. وقضى فيها « ساكتيديفا» ليلته، يرسف في الأغلال، وقد فقد الأمل في التجاة. وفي غمرة بأسه ولوعته، دعا آلهة القسوة قائلًا: «أيتها الآلهة. يا ذات الفم الأرجواني بلون الشفق،

وكأنه لا يزال مخضباً بدماء المارد « رورو» الذي ذبحته.. يا من أنقذت العالم ذات مرة!.. يا مانحة البركات، وملبية الدعوات!.. أنقذيني، أنا أخلص عبادك وأكثرهم طاعة.. لقد جئت من بعيد باحثاً عن الحب، فإذا بي أسقط في براثن أولئك الذين أضمروا لي كراهية وحقداً بغير سبب!».

وما فرغ من صلاته حتي إستغرق في سبات عميق. وفي الحلم ظهرت له إمرأة –يبدو عليها الوقار والجلال– خارجة من «قدس أقداس » المعبد، وإقتربت منه ثم قالت له في عطف وحنان: «يابني ساكتيديفا. لا تخشى شيئاً، فلن يصيبك أذى. إن لأبناء ملك الصيادين أخت، اسمها « بيندوماتى ».. وغداً ستراك فتشغف بك حباً، وتشتهي أن تكون زوجاً لها.. ويجب أن توافق على الزواج منها، فهي التي ستعهد لك سبيل الخلاص. وهي –في الحقيقة– ليست إحدى فتيات الصيادين، ولكنها جنية من الجنيات سقطت عليها لعنة فصارت كذلك! ».

وفي الصباح، إستيقظ من نومه ليجد أمامه فتاة تقترب منه وقد تمثلت لعينيه الظامئتين كأنها كأس شهية مليئة بخمر الآلهة.. وبعد أن عرفته بنفسها قالت له بشغف: « سأطلق سراحك، إذا أنت نفذت رغبتي.. لقد رفضت من قبل جميع الخطاب الذين وافق أخوتي عليهم.. ولكنني، في اللحظة التي وقع بصري فيها عليك، أحببتك حباً ملك علي شفاف قلبي.. وها أنذا أمامك، ملك يديك.. فخذني! ».

وتذكر ساكنيديفا الحلم الذي رآه، فوافق في فرح على إقتراح « بيندوماتي»، وعندئذ أطلقت الفتاة سراحه. ولم يلبث أن تزوجها بموافقة أخوتها الذين ظهرت لهم –بدورهم– الآلهة الأم محذرة إياهم من معارضة مشيئة أختهم.. وعاش ساكتيديفا مع الجنية– التي إتخذت جسداً بشرياً– في سعادة وهناء لا يتوافران إلا كجزاء للذين تحلوا بأسمي الفضائل!.

***

وذات يوم، وقف الزوجان بطلان من شرفة منزلهما، فشاهدا –في الطريق– رجلًا يحمل قطعة كبيرة من لحم البقر، فإلتفت ساكتيديفا إلى محبوبته قائلاً: «إنظرى يا عروسي ذات الخصر النحيل.. كيف سمح هذا الشرير لنفسه يأكل لحم البقر الذي يقدسه الناس جميعاً في ثلاثة أركان العالم؟». فأجابته «بيندوماني»: «حقاً إنها لجريمة شنيعة!.. فإن قدرة البقر هي التي جاءت بي إلى قبيلة الصيادين، رغم أن خطيئتي بسيطة جداً..»، فقال ساكتيديفا: «يا للعجب!.. أخبريني يا حبيبتي: من تكونين؟.. وكيف جئت هنا؟»، وقد رفضت في باديء الأمر أن توضح له الأمر، ولكنه إذ ألح عليها بالسؤال، قالت له: « حسناً، سأقول لك كل شيء، على شريطة ألا تبوح بالسر لأحد وأن تنفذ كل ما أطلبه منك »، فأقسم لها أن يفعل ذلك.. وبدأت حديثها بما تريده أن يفعل، فقالت: « سنتخذ لك –في القريب– زوجة من الجزيرة. ولن تلست هذه الزوجة أن

تحبل. فإذا كانت في شهرها الثامن، عليك أن تشق بطنها وتنتزع منها ثمرة أحشائها، دون رحمة ولا شفقة!».

وبوغت ساكتيديفا بذلك الطلب الغريب، وسألها في دهشة وفزع: « ماذا؟ »، لكن زوجته إستطردت قائلة : « وهناك بسبب وجيه لطلبي هذا. ولكن، إصغ إلي، سأخبرك –أولاً– ما الذي جاء بي بين الصيادين: لقد كنت –في حياة سابقة– إحدى الجنيات، ولم أكن لأعيش في مملكة الأنس، لو لم أقضم بأسناني –ذات يوم– قطعة من أمعاء البقر لأصنع منها وتراً لقيثارتي.. فإذا بي أهبط إلى مستوى البشر، وها أنذا أعيش اليوم بين الصيادين، لمجرد أن أسناني أصابت قطعة جافة من أمعاء بقرة، وقد نزلت إلى هذا الدرك المهين!!.. فأي عقاب يخبئه القدر –إذن– لذلك الذي يأكل لحم البقر، جهاراً نهاراً، دون وازع من خجل؟!».

وفيما كانت تقول له ذلك، أني أحد أخوتها –راكضاً– إلى القصر، والرعب باد على وجهه، صائحاً: «إبتعدوا حالاً.. فقد إنطلق خنزير بري ضخم. وفي غضبه قتل عدداً كبيراً من الناس وهو متجه إلى هنا».. فأسرع ساكتيديفا وهبط من الشرفة، ثم إمتطى جواده، وإنطلق مندفعاً نحو الخنزير البري، هم ممسكاً برمح في يده، ثم أطلقه فأصابه إصابة مباشرة. فلما رأى الخنزير بطلًا بهاجمه أطلق سيقانه للريح، وما لبث أن إختفى في أحد الكهوف. لكن ساكتيديفا لم يقنع بذلك، ما وإندفع خلفه ليقضي عليه. وفيما هو يجتاز مغامرة شاسعة، وقع بصره على حديقة

متسعة يحيط بها سور خشبي، وفي داخل الحديقة قصر كبير.. فلما دخل إلى هناك وجد فتاة باهرة الجمال تركض نحوه في فرع، وكأنها حورية الغابة وقد هربت من إله الحب!.

فسألها قائلًا: «من أنت يا جميلتي؟ ولماذا أنت خائفة هكذا؟».

–أنا « بيندوريكها »، ابنة الملك « كاندرافيكراما» حامي البلاد يا سيدي الفاضل، وأنا عذراء. لكن مارداشربران، ذا عينين ناريتين، إختطفني اليوم –على حين غرة– من قصر أبي، وحملني إلى هنا. ثم إنتابته رغبة في إلتهام اللحم، فإتخذ هيئة خنزير بري، ولكن بطلا عاجله برمحه. وفي هذه الأثناء هربت، وأنا لا أزال عذراء!.

– إذن، فلماذا أنت مضطربة؟ أنا الذي أصبت ذلك الخنزير برمحي، أيتها الأميرة!.

–أخبرني من أنت؟

– أنا برهمي. واسمى « ساكتيدينا ».

–إذن، يجب أن تتزوجني!

–ليكن.. وسأفعل؟..

قال ساكتيديفا هذا. لهم قادها خارج الحديقة –خلال المغارة– إلى داره. وهناك أخبر زوجته « بندوماني » بما حدث، ثم حصل على موافقتها على زواجه من العذراء « بيندوريكها »!.. وفيما هو يعيش مع زوجتيه، حملت « بيندوريكها » طفلاً.. وفي الشهر الثامن من حملها، جاءت إليه زوجته الأولى، وقالت له في خلوة: « تذكر –يابطلي– الوعد الذي قطعته على نفسك. هذا هو الشهر الثامن منذ حملت « بيندوريكها »، فإذهب إليها، وشق بطنها، ثم إنتزع الجنين منها، فليس من شيم الرجال الحنث بالوعود! ».

وتصارعت في قلب ساكتيديفا عاطفتان متناقضتان: حبه لزوجته، وإرتباطه بالقسم الذي أدلى بها!.. ولم يجد بداً في آخر الأمر من التوجه إلى مخدع « بيندوريكها»، وقد عصر الأسى قلبه، فلما رأت زوجته الهم المرتسم على قسمات وجهه قالت له: « لماذا أنت حزين هكذا يازوجي العزيز؟.. أخبرني: أيرجع ذلك إلى أن «بيندوماتي» قد طلبت منك أن تمزق طفلي؟.. لكن هذا أمر لا مندوحة عنه، فإن وراءه حكمة لا تعرفها الآن، وليس فيه قسوة على الإطلاق. ومن ثم لا ينبغي أن تأخذك بي رحمة ولا شفقة!».

إلا أن ساكتيديفا ظل متردداً. وإذا بصوت من السماء يصل إلى أذنيه قائلاً: « يا ابني ساكتيديفا.. أخرج الجنين من رحم المرأة، ولا تخش شيئاً، إقبض على عنقه، وعندئذ سيتحول إلى سيف في يدك! ».

ولم يجد البرهمي مفراً من أن يطيع الأمر الصادر إليه من السماء، فبادر بشق بطن زوجته وأخرج منها الجنين، ثم قبض على عنقه بقبضته –كأنه يقبض على الحظ– وإذا بالطفل يتحول في يده إلى سيف!.. وفي ذات اللحظة تحول البرهمي إلى جني، وفي ذات اللحظة كذلك إختفت بندوريكها من أمامه.. فلما رأى أنها إختفت، هرع –بهيئته القديمة– إلى زوجته الأولى –ابنة ملك الصيادين– وأفضى إليها بما حدث، فقالت له:

« لقد كنا –يا زوجي العزيز– ثلاث أخوات، بنات ملك الجن. وقد طردنا من مدينة الذهب بسبب لعنة صبها علينا أحد الرهبان.. وقد ولدت أحدانا أميرة في مدينة « فاردهامانا » تحت اسم «كانا كاريكها ».. وقد رأيت بنفسك كيف إنزاحت عنها هذه اللعنة، فعادت إلى بلدها. ومنذ لحظة شهدت بنفسك النهاية العجيبة للعنة التي كانت تصيب « بيندوريكها». أما أنا فثالثة الأخوات، وقد جاء موعد خلاصي من لعنتي. وينبغي أن أعود الآن إلى بلدي يا حبيبي، فهناك ترقد أجسادنا التي كانت لنا في عالم الجن. كما أن أختنا الكبرى « القمر المتوهج » تنتظرنا هناك.. تعال معي في الحال –بقوة السيف السحري– إلى الغابة حيث يعيش أبي كأحد الرهبان. وسيعطينا جميعاً إليك كزوجات.. فضلًا عن أنه سيتنازل لك عن عرشه!».

ولما فرغت « بيندوماني» أخيراً من الإدلاء بقصتها الحقيقية، طارت مع ساكتيديفا –خلال ممرات السماء– إلى مدينة الذهب. وهناك شاهد ساكتيديفا أن الأجساد التي كان قد تركها ترقد ميتة في الأجنحة

الثلاث بالطابق الأوسط من القصر، قد دبت فيها الحياة!.. فلما إجتمع بزوجاته المحبوبات، جثون جميماً على الأرض أمامه. وكذلك فعلت أختهن الكبرى « القمر المتوهج »، التي إستقبلته أطيب إستقبال، وتركت عينيها تلتهمان رجولته ووسامة طلعته، بعد طول الفراق!.. وعندما دخل القصر أثار قدومه عاصفة من الهتاف والتهليل من الخدم والحجاب.

وقالت له «القمر المتوهج »: «ياسيدي الفاضل. هذه أختي « كاندراريكها» «فلقة القمر» التي عرفتها في مدينة « قاردهامانا » باسم الأميرة «كانا كاريكها ».. وهذه أختنا الوسطى ساسيريكها «أي لمسة القمر» إنني تزوجتها في جزيرة « انستالا » باسم « بيندوماني» ابنة ملك الصيادين.. أما هذه فأصغرنا ساسيبرابها، أي « القمر المضيء »، التي أصبحت زوجتك باسم «بيندوريكها »، بعد أن أنقذتها من المارد الذي إختطفها.. والآن. تعال معي لتقابل أبانا. « إذا ما وافق على زواجنا منك، إياك أن تؤخر مراسم الزواج!».

هكذا نطقت «القمر المتوهج » بلسان ملك الحب.. بلهفته وجرأته!.. وإنطلق ساكتيديفا في صحبتهن إلى الغاية حيث يعيش أبوهن. وعلى الفور ألقين بأنفسهن تحت قدميه، ونحن له بمكنون قلوبهن، ورغبة نفوسهن. وكان صوت من السماء قد أرشد ملك الحان إلى السبيل الذي عليه أتباعه في هذا الشأن، فلم يتردد في الموافقة مغتبطاً –على زوجهن من البرهمي الشاب. ثم تنازل له عن جميع مقتنياته وممتلكاته –التي لا

حصر لها– بالمدينة، كما أسبغ عليه كل ما أوتي من علوم وفنون. ولم يلبث أن أطلق عليه « ساكتيديفا » اسماً جديداً يحمله في عالم الجن الذي صار الآن أحد أفراده.. فسماه « ساكتيفيجا».

والى ساكتيفيجا توجه الملك بحديثه قائلاً: « لن يستطيع أحد أن يقهرك. إلا أن أمبراطوراً سيبزغ من أسرة « فاتسا » العظيمة، يحمل اسم « نارافاهانادانا »، سيتسلط عليك، وله ستنحني! ».. فلما فرغ الملك العظيم « ساسيكهاندا» من إضفاء بركته على زوج بناته، أذن له بالإنصراف، وظل الملك بالغابة فترة من الزمن صائماً عن الطعام، مداوماً على الصلاة والعبادة، قبل أن يلحق بحاشيته في قصره الملكي.

ودخل ساكتيديفا مع زوجاته إلى مدينة الذهب، عاصمة مملكة الجان. وعاش هناك مستمتعاً بالقصور الرائعة –ذات الجدران المرصعة بالذهب– وبزوجاته الفاتنات، ذوات العيون المتألقة بضياء الحب، يقضي معهن وقته متنزهين في حدائق القصر الرائعة، ذات الدرجات المرصوفة بالأحجار النفيسة!.